مقالة مصورة : ولادة الصهيونية والنزوح اليهودي
إلى فلسطين (مترجم)

ألكسندر إيسايفيتش سولجينيتسين

من كتاب :

# مئتا عام معًا

## عن العقلية اليهودية

نقله إلى العربية

الدكتور حسان مخائيل اسحق

دار الفرقد

# الفصل السابع
# ولادة الصهيونيّة

في العقد الأول من القرن العشرين، وصف ف. ي. جابوتينسكي بطبعه الانفعالي المرن، حركة الوعي لدى اليهوديّة الروسيّة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على النحو الآتي: في بادئ الأمر طرح الجمهور اليهوديّ " التمسُّكَ بخرافة المغالاة بفرادة الواقع اليهوديّ وأصالته"، نقيضاً لحركة التنوير. لكنَّ الوقت مضى، وبقدر ما كان اليهود يخافون المعارف الأدبيّة بقدر ما باتوا الآن متعطشين لها ... وقد نكون نحن اليهود الروس، قياساً على انتشار هذا التعطش إلى المعارف ... أول شعب في العالم". بيد أنَّنا ما إنْ "بلغنا الهدف حتى انطلقنا إلى الأمام لا نلوي على شيء. كان الهدف هو بناءُ يهوديٍّ يستطيع أن يحيا حياة إنسانيّة مشتركة، ويبقى في الوقت نفسه يهودياً"، وها "نحن الآن ... أغفلنا كلُّنا ... أنَّنا ينبغي أن نبقى يهوداً"، "لم نعد حريصين على ماهيّتنا اليهوديّة وبدأنا ننوء بعبئها". ثمَّ دعا جابوتينسكي إلى: "تجاوز روح الازدراء الذاتيّ، وإحياء روح الوعي الذاتيّ ... نحن نشكو من أنَّ الآخرين يحتقروننا، بينما نكاد نحن نحتقر أنفسنا".

إنَّ هذا الوصف يشمل المجرى الرئيس لحركة الادِّغام، لكنَّه لا يتطرَق إلى أبعاد اللوحة كلِّها. ونحن كنَّا قد رأينا (في الفصل الرابع)، أنَّ الروائي والكاتب الاجتماعي بيريس سمولينسكين، كان قد أعلن منذ أواخر ستينات القرن التاسع عشر رفضه القاطع لحركة ادِّغام المثقّفين اليهود التي كان رصدها لأوّل

مرّة في أوديسا، ثم رآها في ألمانيا. فأعلن الحرب عندئذٍ من فوره على "المتظاهرين بالتقوى، والمرائين الذين يسعون إلى اجتثاث كلّ معرفة من بيت يعقوب"، كما على "المرائين التنويريّين الذين يسعون بخطبهم الجذّابة إلى إبعاد بني إسرائيل عن تراث آبائهم". لا! ينبغي ألاّ نخجل من أصلنا، يجب أن نصون لغتنا وكرامتنا القوميّة ونحافظ عليهما، ولا يمكننا الحفاظ على ثقافتنا الوطنية إلاّ في لغتنا اليهوديّة القديمة. وهذا مهمٌّ على وجه الخصوص؛ لأنَّ "اليهوديّة التي سُلبت أرضها" تُعدُّ نمطاً خاصاً: "أُمة روحية". فاليهود أُمة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وليسوا اتحاداً دينياً. ثمَّ طرح سمولينسكين عقيدة "القومية اليهوديّة المتطوِرة".

لكنَّ صوت سمولينسكين كان لا يزال في السبعينات شبه وحيد. والحقيقة أنَّ تحرير السلاف البلقانيين في أواخر السبعينات لم يبق من غير أثر على يقظة الوعي القومي عند يهود روسيا أيضاً. فبعد أعمال العنف التي وقعت ضدَّ اليهود الروس في العامين1882-1881 م، انهارت مُثلُ الهاكسالا، "واهتزَّ اليقين بأنَّ الحضارة ستضع حداً للملاحقات القروسطية ضدَّ اليهود، وأنَّ المعارف يمكن أن تقرِب اليهود من شعوب أوروبا". (هل امتدت تجربة أعمال العنف في جنوبي أوكرانيا لتلتحق بتجربة أوروبا على امتدادها كلِه؟) لقد ظهر بين يهود روسيا "نمط من المثقفين النادمين الذي أخذوا الآن يسعون للعودة إلى اليهوديّة التقليدية".

هنا أعلن الطبيب والكاتب الاجتماعي الشهير ليف بينسكر، دعوته الملحة لليهوديّة الروسيّة والألمانيّة: "التحرير الذاتي". لقد كتب بينسكر يقول: إنَّ اليقين بالتحرير انهار، وينبغي أن يُطفأ فينا بصيص الإيمان بأُخوَّة الشعوب. "لا يشكِل اليهود اليوم أُمّة حيّة؛ إنَّهم غرباء في كلِ مكان، وهذا هو سبب الاضطهاد والازدراء اللذين تواجههم بهما الشعوب التي تحيط بهم". إنَّ الشعب اليهوديّ اليوم "كشبح ميت يطوف بين الأحياء". "وينبغي أن يكون المرء أعمى كي لا يرى أنَّ اليهود، شعب مختار للبغض في كلِ مكان". لا يستطيع اليهود أن "يدَّغموا بأيٍّ

أُمة، لذلك لا يمكن لأيِّ أُمة أن تطيقهم". "وهم إذْ يحاولون الادِّغام بالشعوب الأخرى، فإنَّهم إلى حدٍّ كبير، يضحُون بقوميّتهم برعونة"، لكنَّهم "لم يبلغوا في أيِّ مكان اعتراف شركائهم في الوطن بمساواتهم بالسكان الأصليين". إنَّ مصير اليهوديّة يجب ألاَّ يكون متعلِّقاً بعطف الشعوب الأخرى وإحسانها. أمَّا المخرج العملي من هذا المأزق، فيتمثَّل في تشكيل "شعب على أرض خاصّة به". وعليه يجب امتلاك أيِّ أرض ملائمة، وإسكان اليهود فيها، "ولا فرق في أيِ بقعة من بقاع الأرض". وها هو إنشاء الاتحاد اليهودي العالمي في العام 1860م، يمثِّل أوَل إشارة لارتداد اليهود عن التعويل على الادِّغام وحده.

# النزوح اليهودي إلى فلسطين

كانت قد نشأت بين اليهود الروس حركة أنصار فلسطين، أي السعي للعودة إلى فلسطين، وإنْ كانت في بداياتها حركة ضعيفة (لكنَّها كانت تجسيداً للتحيّة - الابتهال التي كان يتبادلها اليهود فيما بينهم: "العام القادم في أورشليم"). بعد أحداث العامين 1881 -1882م، تعاظمت هذه الحركة بدرجة ملحوظة. "السعي لاستعمار فلسطين ... كي يتمكّن اليهود من مغادرة أوروبا غير المضيافة في غضون قرن واحد". فحلّت محلَّ الشعارات التي طرحها المنوِرون سابقاً لمواجهة "الأصوليّة، والحسديّة، والمعتقدات الدينيّة الخرافيّة، دعوة ملحة إلى المصالحة بين فئات اليهوديّة كلِها واتحادها لتحقيق مُثل" فلسطين، "والعودة إلى اليهوديّة الأولى". "وظهرت في كثير من مدن روسيا حلقات ''أصدقاء صهيون''".

على هذا النحو كانت الأفكار تتوالى ويدقّق بعضها بعضاً ويصحّحه. إذن، إنَّه النزوح، وليس إلى أيِ مكان آخر، إنَّما إلى فلسطين نفسها. لكنْ ما الذي كان يجري، في فلسطين عندئذٍ؟ "كانت الحملة الصليبية الأولى قد أفضت إلى ما يشبه القضاء التام على ما تبقّى من السكان اليهود في فلسطين". ومع ذلك "نجحت المشاعة الدينيّة اليهوديّة الضئيلة أن تنجو من الانهيار: دول الصليبيّين، واستيلاء المماليك على فلسطين، واجتياح قطعان المغول للبلاد". "وفي القرون التي تلت، التحقت بالسكان اليهود هناك أعداد صغيرة من المؤمنين الذين جاؤوا من بلدان شتى". وعند أواخر القرن السابع عشر هاجر إلى هناك عدد محدود من الحسديين الروس. "في أواسط القرن التاسع عشر بلغ عدد اليهود في فلسطين اثني عشر ألف نسمة"، ومع نهاية القرن ارتفع هذا العدد إلى خمسة وعشرين ألفاً. "وقد

دُعيت تلك المستوطنات اليهوديّة التي تجمّعت في بلاد اسرائيل باسم واحد، هو ''إيشوف''". ولم يكن لأولئك الناس كلُهم (الرجال) سوى عمل واحد: دراسة اليهوديّة فقط، ولا شيء آخر. أمّا موارد عيشهم فكانت تأتيهم على شكل تبرُعات ("هالوك") من الطوائف اليهوديّة الأوروبية، فيتسلّمها الرابين ويوزِعونها، الأمر الذي منح هؤلاء سلطة مطلقة على الآخرين. لقد رفض قادة الإيشوف "كلَّ محاولة لإنشاء أيِّ شكل من أشكال العمل اليهودي المنتج في البلاد". كانت الدراسات تتركّز في غضون ذلك على التلمود حصراً، ولا تتناول أيَّ مصدر آخر، حتى دراسة التلمود هذه كانت تقتصر على مستوى متدنٍ جداً. فقد وجد المؤرِّخ اليهودي المعروف غ. غريتس الذي زار فلسطين في العام 1872م، أنَّ "الذين يدرسون فعلاً هم قلّة، بينما كانت الأكثرية تفضِّل أن تتسكع، وتثرثر، وتلقلق، وتمارس النميمة والافتراء". كما وجد غريتس أنَّ "هذا النظام لا ينتج سوى الرجعيّة والتطرُف، والعوز وانحطاط اليهوديّة الفلسطينيّة"، - رداً على موقفه هذا "أُلقي عليه الحرم مباشرة".

في العام 1882م ظهرت في خاركوف حلقة طلاَبية أطلقت على نفسها اسم ''محبي فلسطين''-"البيلويسيين". وحدّد هؤلاء هدفهم الرئيس "بإنشاء مستعمرة زراعية نموذجية في فلسطين"، ثمَّ إطلاق "شرارة بدء استعمار اليهود لفلسطين"؛ وراح هؤلاء ينشؤون حلقات مماثلة في مختلف المدن الروسيّة. (فيما بعد، أنشأوا بطريقة ما، أول مستعمرة في فلسطين، لكنَّ الإيشوب القديم تصدَّى لهم، قاومهم وأنزل لعناته عليهم: طالبهم الرابين بأن بالالتزام بموجبات الطقس القديم، وترك الأرض بوراً من غير حراثة كلَّ سابع سنة).

لقد حظي التيار الفلسطيني هذا بمساندة بينسكر الذي دعا في العام 1884م إلى مؤتمرهم الأول في كاتوفيتسا، والثاني في العام 1887م في دروسكينيكي. ثم أخذ الدعاة يجوبون إقليم الاستيطان اليهودي ويلقون الخطب في المعابد، واللقاءات العامة. (ينقل دييتش أنَّ الحماس لهؤلاء دبَّ في ب. أكسلرود

نفسه، بعد العام 1881م). وغنيٌ عن البيان القول: إنَّ سمولينسكين صار إلى داعية شديد الحماس للتيار الفلسطيني. فنسج علاقات وطيدة مع الشخصيّات اليهوديّة الإنكليزيّة البارزة، وعندما اصطدم بمقاومة الاتحاد اليهودي العالمي الذي لم يكن استعمار فلسطين في مخطّطاته، بل كان يسعى إلى توجيه موجات الهجرة اليهوديّة نحو أمريكا، أعلن سمولينسكين أنَّ التكتيك الذي يتبعه الاتحاد يُعدُّ "خيانة لقضيّة الشعب اليهوديّ". لكنَّ موت سمولينسكين المبكر وضع حداً لمساعيه. ومع ذلك لم تلق حركة التيار الفلسطيني سوى صدى باهتاً في الأوساط اليهوديّة الروسيّة خلال تلك السنوات، بل يمكن القول: إنَّها لاقت هناك مقاومة. "ففكرة البعث السياسي للشعب اليهودي، لم تثر في تلك الآونة سوى اهتمام مجموعة صغيرة من المثقفين اليهود، بل سرعان ما لاقت خصوماً عقيديين لها"؛ لأنَّ الدوائر اليهوديّة المحافظة، والرابينات، والصدوقيّين رأوا في التيار الفلسطيني جريمة ضدَّ الإرادة الإلهيّة، "تجديفاً على دين موسى؛ لأنَّ موسى وحده الذي يجب أن يعيد اليهود إلى فلسطين. ورأى التقدميّون من دعاة الادِّغام، أنَّ التيار الفلسطيني حركة رجعيّة ستفضي إلى عزل اليهود عن العالم المتحضِّر". كما لم يساند اليهود الأوروبيّون التيار الفلسطينيّ.

في غضون ذلك كانت النجاحات التي حققها التيار الفلسطيني على الأرض "هزيلة جداً"؛ "فكثير من المستعمرين اكتشف أنَّه لا ينفع في العمل الزراعي"؛ " فتضاءلت غاية إحياء الوطن القديم، وصارت إلى عمل خيريٍ صغير"؛ "لم يُنقذ المستعمرات اليهوديّة من الهلاك سوى التبرُعات السخية التي كان يقدمها البارون إدموند روتشيلد" (الباريسي). لكنَّ ذلك جعل من المستعمرين "أُجراء زراعيين تابعين خاضعين لنظام طاعة صارم". وعند أوائل التسعينات "عاشت حركة الاستعمار اليهودي في فلسطين أزمة حادة تسبب بها أولاً، شراء الأراضي بطريقة عشوائية فوضوية لا ضابط لها"، ثانياً، قرار تركيا التي كانت فلسطين عندئذٍ من أملاكها، الذي قضى بمنع اليهود الروس من الرسوِ في موانئ فلسطين.

في تلك الأثناء برز بين أنصار التيار الفلسطيني، الكاتب الاجتماعي والمفكّر والمنظّم المعروف أُوشر غينتسبيرغ، الذي اتخذ لنفسه منذ العام 1889م اسماً مستعاراً يهودياً هو أحد -هاعام (أي "واحد من الشعب")، وعرف بهذا الاسم منذ ذلك الحين. لقد وجَّه أحد -هاعام انتقادات حادة إلى الطرائق العملية التي اتبعها التيار الفلسطيني. وكان إرشاده على النحو الآتي: "قبل حشد الجهود للبعث على الأرض، يجب الاهتمام ببعث القلب، بالكمال الذهني والأخلاقي للشعب". "يجب أن نضع في مركز اهتمام اليهوديّة سعياً روحياً حياً إلى توحيد الأُمة، وإيقاظها وتطويرها وغرس الروح القوميّة فيها من غير قيود، لكنْ على أسس إنسانيّة مشتركة". فيما بعد دُعيت وجهة النظر هذه "بالصهيونيّة الروحيّة" (لكنَّها ليست "دينيّة" -وهذا مهمٌ جداً).